جدار يسقط، ترتفع جدران

الحياة - ٩٠/٧/١٦

غسان سلامة*

■ اصبح حجر تهاوى من جدار برلين، ذخيرة يحتفظ بها، وسلعة تذكارية تباع في شوارع نيويورك. وجاءتنا في مطلع العام بطاقة معايدة برأس السنة كانت عبارة عن صورة لصاحبها يقف أمام فجوة واسعة في الحائط الذي قسم العاصمة الالمانية، وفرز جغرافيا «المنظومة الاشتراكية» عن «العالم الحر»، سنين عديدة. ولم يبق من سياسيي اوروبا، ومثقفيها البارزين، ناهيك عن كبار الموسيقيين والادباء من لم يذهب لرؤية الجدار ينهار. ومنهم من اقام حفلة موسيقية امامه، او من حضر قداساً الى جانبه، ناهيك عن الذين استطاعوا فعلا كتابة كتاب عنه وطبعه قبل ان يكون «البولدوزر» الالماني الشرقي قد اكمل مهمته.

فجوة اخرى في جدار عات، اقدم من حائط برلين واشد قساوة، يتم تنفيذها اليوم امام اعيننا في جنوب افريقيا. ان يسقط الحائط الذي فصل بين نلسون مانديلا والحرية حدث بالغ الدلالة، ولكن الصورة - الرمز قد تكون لرجل شديد السمنة على رمال الشاطىء الجنوب - افريقي وحوله تلعب مجموعة من الصبية. الرجل ابيض البشرة والصبية سود، والصورة تدل على سقوط الحواجز التي بناها نظام التفرقة العنصرية خلال قرن من الزمن بين سكان الأرض الأصليين وبين مستعمريها الطارئين.

فجوة في جدار برلين، وفجوة في جدار العنصرية، اوليس هذا زمان سقوط الجدران، زمان التآلف والانفتاح؟ وغداً عندما يتوحد شطرا المانيا، وعندما تقبل الأقلية البيضاء بحكم الأكثرية السوداء (كما فعلت قبلها في روديسيا)، ألن نرى موجة انفتاحية تهب على العالم، وتهزم الحيطان الواحد تلو الآخر: بين الصين واليابان، وبين شمال اميركا وجنوبها، وبين الكتل الثقافية والسياسية واللغوية التي تتقاسم العالم، فنصبح جميعاً ابناء «قرية عالمية واحدة»؟

وقد ينتقل هذا التفاؤل الى منطقتنا العربية نفسها حتى بتنا نسمع عن فجوات حدثت في الجدران الكثيرة الفاصلة بين البلدان العربية. فهذه فجوة في الجدار العالي الذي بناه الانكليز لفصل شطر اليمن الشمالي عن شطره الجنوبي في منتصف القرن الماضي حين اقتطعوا عدن وفصلوها عن الجسم اليمني كله. وهذه فجوة في الجفاء المصري - السوري الذي عمره من عمر اتفاق كمب ديفيد، وهذه فجوة في العداء العراقي - السوري فتحتها مشاريع تركيا المائية، ناهيك عن زعزعة طبقات متكلسة من العداء المتبادل هنا وهناك.

لهذه الأسباب، يقف اصدقاء لنا منبهرين أمام تحولات لم نكن جميعاً نتوقعها او نجرؤ على الحلم بها. لكن هذا الانبهار لا يجيب عن سؤال اساسي: هل ما نشهده هو سقوط الجدران الفاصلة في النظام الدولي جميعاً، كما تسقط الأرقام في لعبة الدومينو؟ أم ان ما نراه هو سقوط جدران قديمة انتهى دورها كعلامة للفصل والقسمة والنبذ، لكي ترتفع جدران غيرها، في اماكن اخرى من العالم، تقوم بالدور نفسه؟

ولا نقلل من أهمية الفجوات الحاصلة في برلين او في الكاب او في غيرهما من الأماكن، ان نحن ذكرنا بالجدران التي بدأت ترتفع هنا وهناك لتكريس اشكال جديدة من الفصل والنبذ.

نحن نرى جداراً عالياً قيد البناء على طول البحر الأبيض المتوسط، تقوم دول اوروبا ببنائه لمنع تدفق سكان الشمال الافريقي، من مصر حتى المغرب، نحو دول اوروبا. فاوروبا مهجوسة بالانفجار السكاني الحاصل حالياً على الشاطىء الجنوبي للمتوسط، وخائفة منه، ومصرة تماماً على منع انتشاره، خصوصاً وان دولاً اوروبية عديدة كانت لا تعرف جاليات عمالية عربية مهاجرة اصبحت تتأفف منها، مثل ايطاليا واسبانيا والبرتغال. واوروبا عموما، في المرحلة ما بعد الصناعية التي تشهدها اليوم، لم تعد بحاجة لأي عمالة جديدة، وستركز بالتالي على بناء جدار عال من العوائق القانونية والبوليسية جنوباً.

ونرى اليوم جداراً جديداً من الكراهية يتم بنيانه التدريجي، بصورة موازية للخط الأول بين العرب والافارقة. فإن تتبعنا الأوضاع من النزاع الدامي في السودان الى الشرق، حتى النزاع الحالي بين موريتانيا والسنغال، لتلمسنا خطاً جديداً للتماس وللنزاع بين شمال افريقيا العربي، ووسطها الأسود. أن تكون لاسرائيل مصلحة في التسريع في ارتفاع هذا الجدار، أمر طبيعي للغاية، وهذا ما يفسر ما يحكى عن «تغلغلها» المتزايد في القارة السوداء. لكن الأمر يتجاوز المصالح الاسرائيلية ويشهد على تسييس جديد للون البشرة في شمال القارة الافريقية، بينما يتم التخفيف من تسييس اللون في جنوبها.

ولا بد من استذكار جدار جديد من التنابذ في منطقتنا، يرتبط بالمسألة المذهبية. فإن كانت الفرقة بين المسلمين، من سنة وشيعة، قديمة قدم الاسلام، فإن التسييس الحاصل حالياً بها أمر نسبياً حديث. ولا ريب ان الحرب العراقية - الايرانية زادت من حدة هذا المعيار، بل راينا للأسف بين المثقفين من أخذ ينظر لهذه الفرقة، ويعتبرها الميزان الأساسي للولاءات السياسية، وهي لم تكن يوماً كذلك.

وان نحن وسعنا زاوية النظر لوجدنا جدران التخاصم والتنابذ الجديدة تتزايد في طول الكرة وعرضها. فهل سمعتم بالاف المهاجرين في الشرق الآسيوي المتنقلين من شاطىء الى شاطىء دون أن يقبل بهم أحد؟ وهل رأيتم العزلة الجديدة التي فرضها حكام الصين على انفسهم بعد قمعهم الدموي لتظاهرات الطلاب المولعين بالديموقراطية؟ ثم ألم تدلنا احداث بنما والتدخل العسكري الأميركي الدموي فيها الى ان الولايات المتحدة تسعى مجدداً لاقامة نوع من الجدار بين الاميركتين وبقية العالم وفقاً لمبدأ مونرو القديم - الجديد؟ وبينما تتفكك بعض الجدران الفاصلة بين الغرب والشرق، أولسنا نرى الجدران الجديدة التي تنشأ داخل «الشرق» كما عرفناه: بين رومانيا وهنغاريا وصراعهما القديم على مقاطعة ترانسلفانيا، بين ارمينيا وازربيجان، بين روسيا ودول البلطيق، وبين روسيا وجورجيا، ناهيك عن الجدار الضمني الذي بدأ ينشأ بين شرق الامبراطورية الاسيوي وغربها الاوروبي؟ ألم نر أن عدداً من هذه الجدران بدأ يسيل الدم من على جانبيه، وأن الصراعات الايديولوجية قد تحطمت حيطانها، بينما ترتفع الجدران العرقية والثقافية والدينية؟

وبصورة أشمل، أولسنا نرى أن الاقتصاد العالمي تحكمه قوانين متجددة من القفل والحماية؟ فلنر كيف ان اوروبا الغربية رفعت مبدأ حماية أسواقها أمام المنتجات البتروكيماوية الخليجية، أو كيف ان اوروبا نفسها تحاول حماية صناعة السيارات فيها من المنافسة الاسيوية. ولكن المثال الأوضح فعلا هو مثال اليابان نفسه الذي يغزو العالم بمنتجاته ولكنه يصر على حماية سوقه الداخلية بالف طريقة ووسيلة، مرتكزاً على روح قومية شوفينية قديمة، تسعى للغزو الخارجي ولا تتقبل بسهولة أي تدخل للخارج فيها.

وبنظرة اكثر شمولية، أولسنا نرى أن جداراً اقتصادياً عالياً بدأ يرتفع فعلا بين الشمال والجنوب؟ لقد دخلنا زمناً اصبح فيه ثلث التبادلات التجارية العالمية يمر عبر المحيط الهادىء بين الولايات المتحدة والشرق الأقصى المصنع. ونحن نرى توظيفات مالية يابانية هائلة في اوروبا الغربية والولايات المتحدة، وتوظيفات اوروبية مهمة في الولايات المتحدة، بينما الحاجة للمواد الاولية وللعمالة الكثيرة في دول الجنوب في تضاؤل مستمر. اننا نتحدث كثيرا عن الكارثة الاقتصادية التي يحاول غورباتشوف مواجهتها في الاتحاد السوفياتي، لكن هذه الكارثة لا يمكن ان تجعلنا ننسى الأوضاع المتردية، وفي عدد من الحالات، غير القابلة للتصحيح في معظم دول الجنوب. أضف الى ذلك ان المساعدات المالية التي كانت تذهب من الشمال الى الجنوب، اصبحت اوروبا الشرقية تنافس الدول الافرو - اسيوية عليها وتخطفها منها.

وبعد، فمن قال ان سقوط الجدران هو أمر ايجابي مئة في المئة؟ من قال ان الاغتباط بسقوط جدار برلين عمومي، وان الشعوب التي أرهبتها المانيا الموحدة في السابق هي اليوم تصفق لاعادة توحيدها؟ ونحن العرب ألم نر ان سقوط الجدران السوفياتية التي كانت تمنع اليهود من الهجرة قد أدى الى ارتفاع جدار يمنع هؤلاء اليهود من الولوج الى الولايات المتحدة، فاصبنا، نحن العرب، ببلية جديدة في فلسطين، يعلم الله كيف يكون حجمها النهائي؟

فيا مرحى بالحجارة التي تتساقط من جدار برلين! لكن الأعين يجب ان تبقى مفتوحة على مستقبل هذه الحجارة، فهي لن ترمى جانباً، بل ستنقل الى مواقع أخرى من الكرة، ليعاد بها بناء جدران كثيرة أخرى. فالمنطق الغالب ليس منطق نهاية النزاعات في العالم، انما منطق نقلها من مكان الى آخر وشعوب العالم لم تتحول فجاة من التنابذ الى التآلف. وقد يكون التآلف الجديد الحاصل بين بعضها صورة متجددة عن نبذ بعضها الآخر... وقد يكون الحائط المتهاوي هنا، مقدمة لحيطان كثيرة تشاد هناك.

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.